# التآلف والوئام بين الأديان..
# وجهة نظر مسيحيّة عربيّة

**الأب الإيكونومس نبيل حدّاد**

*المركز الأردني للأبحاث المتعلّقة بالتّعايش الدّيني الأردني.*

**مقدّمة**

التآلف والوئام بين أتباع الأديان يؤشّر إلى دلالة عميقة على قبول طرف لطرف آخر، ينطوي على التّسامح. والتّسامح لا يمكن أن يكون وليد مساومة فكريّة أو دينيّة، أو نتاج موقف تلفيقي يلغي الخصائص والمميّزات الفريدة لكلّ طرف ويقفز فوق الفوارق التّكوينيّة. إنّه الاعتراف العميق بوجود التّباينات، واحترام هذه التباينات. من هنا، كانت المعرفة شرطاً أوّل للتّسامح؛ معرفة حقّة بالذّات وبالتّاريخ وبالهويّة وبالشخصيّة التّاريخيّة، ترفدها معرفة مكملة بالآخر، تاريخاً وثقافة وحساسيّة وحضوراً راهناً.

ولا يقوم الوئام الحقّ، لا الشّكلي البروتوكولي القائم على المداهنة والتّكاذب، إلاّ على قاعدة المعرفة الرّصينة. فالجهلاء ليس بينهم مودّة. إنّهم لا يتحاورون بل يقفزون فوق الحقائق. والوئام بين أتباع الأديان لا بدّ

أن ينطلق من قاعدة أن التعدّد شِرعة إلاهيّة وسمة الوجود، وأن يتجاوز فكرة القبول السّلبي الاضطراري بالآخر، كما لو كان مجرّد إضافة، إلى فكرة أنّ الآخر شرط مؤسّس للأنا. فكلّ علاقة تتقدّم بوصفها تغاضياً مؤقّتا عن الاختلاف، ليست علاقة خلّاقة أو مساهمةً في عمران الكون، بل هي رأفة القويّ بالضّعيف، ومنحة جبّار يخلعها على رقيق الحال، تلطّفاً منه وإنعاماً وإحساناً. وفي غياب المودّة الحقيقيّة بين أتباع الأديان لا تكون هنالك ثقافة حقيقيّة للوئام والسّلام ولا أساس فلسفياً للسّلام نفسه. ودونها لا يمكن أن تستقيم الأحوال السياسيّة والدّينية والحضاريّة. إنّها خيار إلزامي، ومعبر ضروري إذا شاءت البشريّة أن تنمو وتزدهر. إنّها قيمة تجعل الحياة ممكنة في الأساس، وقادرة على أن تهزم الموت والحروب والدّمار. والمودّة تعني وجود الاحترام المتبادل والتّسامح ولتقوم المودّة لا بدّ من توفّر شرطين فكريّين مسبقين في كلّ ذهنيّة، حتّى تدوم وتتجذّر :

- فكرة نسبيّة الحقيقة البشريّة وتنوّع سبل الوصول إليها وأساليب التّعبير عنها. فحتّى في الشّؤون الدّينية، ثمة مساحة واسعة للقول بنسبية الحقيقة، إذا آمنا أن الوحي الإلاهي شيء، فيما التّعبير عنه تاريخياً شيء آخر. فالحقيقة الإلاهيّة ثابتة مطلقة لا تتبدّل وتعلو على كلّ الحقائق النسبيّة. لكنّ فهمنا البشري لها، وتعبيرنا عن هذا الفهم، يتبدّلان ويخضعان لشروط الإنتاج التّاريخي لكلّ معرفة بشريّة.

- نزع الدّوغما عن أفكارنا الدّينية أو الحضاريّة بفتح أبوابها أمام التطوّر والإخصاب. فالدوغما ليست إلغاء لإمكانية الحوار والتلاقح والموّدة فحسب، بل هي أيضاً إفقار للفكرة نفسها إذ تحيلها من كونها مدىً حيّاً إلى كونها جثة هامدة يحرسها أشباح التّاريخ، عوض أن يحوطها أبناء الحياة. فكيف تتلاقى الدّوغما مع دوغما أخرى ؟ إنّهما تتلاغيان وتتنافيان، عندما تنغلق الواحدة على نفسها لتنعزل داخل دائرتها من غير إنصات لصوت غير صوتها وتأمّل في غير صورتها.

على هاتين القابليّتين، قابلية قبول نسبيّة الحقيقة، وقابليّة تحرير الفكرة من الدّوغما، يمكن تأسيس قاعدة العلاقات الّتي تسودها المودّة، والّتي تشكّل ركناً أوّل في أركان ثقافة السّلام. وهنا نبلغُ سؤالاً أساسياً :

هل تنطوي الأديان على قيم تدعو إلى الحوار والمودّة ويمكن أن تقود المؤمنين إلى التخلّق بأخلاق أهل السّماء، والاشتراك في إعمار الكون ؟

من المؤكّد أنّ الإجابة عن هذا السّؤال هي بالإيجاب. وبالنّسبة إلى المسيحيّة فيكفي أن نطوف في رحابها لنعثر على المحبّة وما تتطلبه من ثوابت قيميّة تؤسّس للعلاقات بين البشر القائمة على التّسامح والتّعايش والمودّة.

**المحبّة أو المودّة في المسيحيّة :**

جاءت المسيحيّة تحمل قيماً تأسيسيّة تنشئ لدى المؤمن بالسيّد المسيح شخصيّة تتسم بالمودّة والانفتاح والتّسامح، فالإنسان هو على صورة الله ومثاله، جعل فيه الله نفساً حيّة، وأقامه في الجنّة في تشارك مع حواء الّتي هي نفس من أنفاسه. فالإنسان لم يخلق فرداً منكفئاً، بل "ذكراً وأنثى خلقهما" (تك 8:3) وليست الخطيئة، بمفهومها اللاّهوتي، سوى رغبة الإنسان في أن يستمد كيانه من نفسه، لا من روح الله، وأن ينغلق فلا يتلقى المحبّة التي تنشئه. والجنّة هي لبوث الإنسان في "حوار ومودّة" مع الله، في وضعيّة التلقّي للحب، وفي التّكامل مع سائر الخليقة الّتي عهد الله إلى الإنسان أن يسمّيها بأسمائها.

وفي تعاليم يسوع المسيح ما يؤسّس لهذه الغيريّة المطلقة التي تذهب أبعد من المودّة إلى بذل الذّات عن الآخر : فرداً على سؤال الفريسيّين الّذين تساءلوا ما هي الوصيّة الكبرى في الشّريعة، أجاب : "أحبب الربّ إلاهك بكلّ قلبك وكلّ نفسك وكلّ ذهنك. تلك هي الوصيّة الكبرى

والأولى. والثّانية مثلها : أحبب قريبك حبّك لنفسك". (متى 34:22). وفي العظّة على الجبل يعلن : "لا تدينوا لئلاّ تدانوا. فكما تدينون تدانون. ويكال لكم بما تكيلون. لماذا تنظر إلى القذى الذي في عين أخيك، والخشبة الّتي في عينك أفلا تأبه لها ؟" (متى 1:7-2).

إن جوهر المسيحيّة هو أن الله افتدى الإنسان، على الصّليب، حتّى تكون له الحياة أوفر، وإنّ الإنسان مدعو إلى أن يقدّم نفسه مبذولاً في سبيل الآخر كلّ آخر. في هذا الجوهر ثمّة قيمة أعمق من التآلف والوئام، على عمقها، بل منها يمكن للمودّة أن تكتسب مداها الأبعد والأبقى. أن تكون مسيحيّاً حقّاً، يعني أن تذهب في إيمانك إلى مقاصده العليا، إلى الإعلاء من قدر الإنسان، وحب الآخر القريب ورفض أيّ استغلال أو إقلال من كرامته، ككائن مخلوق على صورة الله.

## المودّة .. والمسيحيّة العربيّــة

تشكّل علاقتنا نحن العرب المسيحيّين بإخوتنا المسلمين وبالإسلام جانباً مميّزاً وأساسيّا لهويّة كنائسنا. فالمودّة مع المسلمين هو عنصر أساسي من حياتنا المسيحيّة في هذه المنطقة العزيزة، وعليه ظلّت دائماً محطّ اهتمام المسيحيّين العرب وتفكيرهم والتزامهم. وشكّل التّعايش على مدى قرون طويلة خبرة أساسيّة لا عودةَ عنها، وجزءاً من مشيئة الله على المسيحيّين والمسلمين على السّواء. الأمر الّذي يفرض عليهم جميعاً أن يعملوا دوماً جاهدين كي يعزّزوا هذا التّعايش، ويفتحوا له إمكاناتٍ وآفاقاً تقتضيها تحدِّيات الواقع والظّروف المحليّة والدوليّة.

جاء في ادبيّات المجمع الفاتيكاني الثّاني إلى هذه الظّاهرة بقوله : "يُعتبر تعدّد العلاقات المتبادَلة بين البشر من أخصّ خصائص هذا العصر. وعمل التقدّم العلمي الحالي على تنمية هذه العلاقات تنمية واسعة". ويضيف قائلا : "غير إنّ الحوار الأخوي بين البشر لا يكتمل في هذه

التطوّرات، بل يكتمل في ما هو أعمق من ذلك، أي في تجمّع الأشخاص الّذي يقتضي الاحترام المتبادل لملء كرامتهم الرّوحية".

لا شك أن الديانات تلعب، في هذه الفترة بالذات، دوراً خاصاً ومؤثّراً ومصيريّاً في مجال العلاقات بين الشعوب. فالتعايش بين البشر في الألف الثالث من تاريخنا يقرره التلاقي الإيجابي والبنّاء بين أبناء الديانات المختلفة على وجه العموم، وبين أبناء الديانتين المسيحية والإسلامية على وجه الخصوص.

والمسيحيّون في كلّ زمان ومكان متأصّلون في مجتمعاتهم وهم جزء منها لا ينفصل عنها. وعليه فإنّهم يشاركون جميع إخوتهم المواطنين في السرّاء والضرّاء، في وحدة الوطن والتّاريخ والمصير. وغني عن القول إنّ هذا التأصّل في تاريخ بشري محدّد، بكلّ ما فيه من حيثيّات وخصوصيّات، هو أحد جوانب سرّ الشّهادة المسيحيّة الحيّة. وما التأصّل التّاريخي لكنائسنا في مجتمعاتنا إلاّ وجه من أوجه سرّ التجسّد : "والكلمة صار جسداً وسكن بيننا" (يوحنا 14:1). فكما اتّخذ السيّد المسيح، كلمة الله الأزلي، طبيعتنا البشريّة وتجسّد في تاريخنا، كذلك يُدعى كلّ مسيحي إلى تجسيد إيمانه في الأرض الّتي أراده الله فيها، وفي الجماعة البشريّة الّتي دعاه إلى أن يكون جزءاً منها. على هذا الأساس المتين يترسّخ ارتباط المسيحيّ بإيمانه وبمجتمعه في آن واحد.

يعود الحضور المسيحي في معظم البلدان العربيّة إلى نشأة المسيحيّة. ويشهد التّاريخ على وجود جماعات مسيحيّة عربيّة في مختلف مناطق الشّرق. وبمجيء الإسلام في القرن السّابع، بدأ المسيحيّون والمسلمون في الشّرق العربي تاريخاً مشتركاً، وحضارة مشتركة ورثت ما سبقها من حضارات. ولقد أدّت خبرة الماضي بالمسلمين والمسيحيّين إلى الانصهار في بوتقة التآلف التي اخصبت الحضارة العربيّة، فيما احتفظت كلّ جماعة بأصالتها الدّينية وخصوصيّة تقاليدها.

اندمج المسيحيّون والمسلمون ضمن المجتمع العربي الواحد يتقاسمون فيه العيش والخبز والملح ووقفوا معا في السرّاء والضرّاء، في ظلّ قيم مشتركة، وأنماط حياة خاصّة تجمّعهم وتوحّدهم. وتكوّنت عادات وتقاليد مشتركة لا تزال حتّى اليوم تميّز مجتمعاتنا العربيّة. واليوم، وبينما نواجه قضايا الحاضر ونتطلّع إلى المستقبل، لا بدّ لنا أن نستلهم هذه التّجربة الأصيلة، الّتي صقلتها أجيال من التّلاحم وأورثتنا إيّاها نواجه بها المشاكل اليوميّة الّتي لا يخلو منها أيّ مجتمع من المجتمعات.

لقد استطاع مسيحيّو الشّرق مواجهة كلّ عوامل الزّوال فهناك تعلو أحياناً أصوات انهزاميّة لتزعم أنّ المسيحيّين ليس لهم غد في الشّرق، وثمّة أصوات أخرى ترتفع لتطالب بتصفيتهم أو بترحيلهم، لكن المسيحيّين مقتنعون بضرورة بقائهم حيث هم، ومصرّون على التمسّك بماضيهم الدّيني والحضاريّ حفاظاً على إيمانهم ورسالتهم وتحقيقاً لمصالح أوطانهم، وذوداً عمّا اؤتمنوا عليه من قيم احترمتها البشريّة وهي حريّة الضّمير وإمكان التّعايش والتآلف بين مختلف اتباع الأديان.

لا يخفى أنّ معظم الغربيّين يجهلون كلّ شيء عن أحوال الشّرق ومعضلاته المعقّدة، وما عني بالشّرق المسيحيّ حتّى اليوم سوى البعض فالأوساط السياسيّة في دول عديدة توسّمت في مسيحيّي الشّرق نقطة ارتكاز لنفوذها، بيادق تحرّكها وفقا لأهوائها أمّا المستشرقون فوجدوا فيهم مادّة لبحوثهم دونما عناية بهم ككنيسة حيّة وأمّا المحسنون الأتقياء في "مبرة الشّرق" وغيرها، فيرون في مسيحيّي الشّرق متسوّلين بحاجة دائماً إلى المال فيما يهتمّون بالمبشّرين الأجانب العاملين في مجتمعاتهم الشرقيّة أكثر من اهتمامهم بازدهار الكنائس المحليّة.

## التّجربة الأردنيّــة

الأردنّ مجتمع عربي إسلامي لم يُكتب على بواباته : للمسلمين فقط، احتضن المسلم والمسيحيّ اللّذين يسكنان معاً ويتقاسمان الخبز

والملح ويشتركان بلسان عربيّ وفي إرث الحضارة العربيّة الإسلاميّة. أمّا أخلاق الأردنيّين المسلمين فهي شهادة تؤكّد تسامح الوطن واحترامه للّذين قالوا إنّا نصارى.. وظلّ المسيحيّون الأردنيّون شهوداً في وطنهم للسيّد المسيح ابن مريم الّذي جاء رحمة للعالمين ولوطنهم لا عليه. فهم المؤمنون بأنّ حبّ الوطن والآخر المختلف في الدّين عبادة : أحبب قريبك كنفسك (متى 19:19)، وأنّ هذا القريب هو وطنهم، وأنّ المحبَّةَ والمودّة واجبٌ وفريضة، لأنّها وصيّة السّماء. أمّا انتماؤهم إلى الإيمان المسيحيّ، الّذي هو في جغرافيا الخلاص منتجٌ محلِّي، فما شكّل يوماً حاجزاً بينهم وبين إخوتهم المسلمين.

وقد فهم المسيحيّون أنّ مسيحيّتهم لا تسمح لهم إلاّ أن يكونوا جزءاً من مجتمعهم يعملون من أجل خيره بمحبة دون منّة أو عجرفة أو تصنّعٍ ودون ارتداء لبوس الفريسيّة. وقرأوا في أسفار إيمانهم وفي صليبهم دعوة لطاعة الله وحبِّ القريب الذي هو كلّ الوطن بأرضه وناسه، وهم المدركون أنّ التطرّف ليس محصوراً في جماعة أو دين ويهدّد كلّ المعتدلين وكلّ المؤمنين، إنّ حبَّ القريب ومودّته يفرضان مواجهة كلّ تطرّف ديني أياً كان القناع الّذي يختبئ خلفه.

يستند الأردن إلى قداسة دينيّة تاريخيّة وحاضرٍ حيّ. فهو موطن النبيّ إلياس الجلعادي العجلوني (2 ملوك 11:2) وملجأ موسى النبي الآتي من مصر، على رأس أوّل مجموعة وافدين من مصرً. وهو الوطن الذي أتى إليه المسيح ليعتمد من نبي الأردن يحيى المعمدان وهو البلد الذي كانت أجواؤه ليلة الإسراء معبراً بين مكّة والقدس، فارتبطت القبلتان وبينهما الأرض الأردنيّة المباركة، التي ستصير فيما بعد باباً لفتوحات الجيش العربي الأوّل في مؤتة وفحل واليرموك، وحاضنة أضرحة قادته الأُوّل الّذين وقف معهم غساسنتنا في دور مسيحي عربي ما زال يشهد لحالة التآلف والوئامً.

وجاءت "رسالة عمّان" وثيقة تاريخية وبياناً مفصّلاً أصدره صاحب الجلالة الملك عبدالله الثاني ابن الحسين، عشيّة السابع والعشرين من رمضان المبارك عام 1425هـ الموافق للتاسع من تشرين الثاني (نوفمبر) عام 2004م. لتشكّل ضمن منهجيّة الحوار التّطبيقية، جهداً واعياً وتثقيفياً مناسباً يقف في مواجهة الأفكار المغلوطة والفتاوى غير الشّرعيّة والانحدار إلى ظلمات التّكفير والإرهاب. وتتضمّن حلولاً إسلاميّة متّزنة لقضايا أساسيّة مثل حقوق الإنسان وحقوق المرأة، والحريّة الدينيّة والجهاد الشّرعي والمواطَنَة الصالحة في الدّول الإسلاميّة وغير الإسلاميّة، وغيرها مما تعتبر قضايا رئيسة وأساسيّة في السّلام والتّناغم بين شعوب العالم.

وفي وثيقة "كلمة سواء بيننا وبينكم"، الّتي صدرت عام 2007، تلاقى مائة وثمانيّة وثلاثون عالماً من العلماء ورجال الدّين والمفكّرين المسلمين، بالإجماع، لأوّل مرّة منذ بداية الدّعوة الإسلاميّة، ليعلنوا على الملأ القاسم المشترك بين المسيحيّة والإسلام، وليؤكّدوا أنّ القاسم المشترك بين الدّين الإسلامي والدّين المسيحيّ، والّذي يعتبر القاعدة الأفضل للتآلف والوئام هو حبّ الله وحبّ الجار. وتمثّل بيانا توافقيّا تفصيليّا لم يسبق أن خرج المسلمون بمثله حول المسيحيّة.

ولا يفوتني أن أشير، في هذا السّياق، إلى وثيقة "التّعايش الدّيني الإسلامي المسيحي المشترك" التي صدرت عن مؤتمرنا "التعايش وصنع السّلام"، الّذي أقيم تحت رعاية جلالة الملك عبدالله الثّاني ابن الحسين، في عمّان أوائل هذا العام 2008، وشارك فيه كبار علماء الدّين الإسلامي ورؤساء الكنائس المسيحيّة في الشّرق الأوسط كما شارك فيه مندوب عن الأمين العام لجامعة الدّول العربيّة ومتخصّصون بارزون مهتمون بالحوار، حيث أكّدت هذه المرجعيّات الدّينية الكبرى في الوثيقة على ضرورة الالتزام والدّعوة إلى احترام حريّة الدّين والعقيدة؛ واحترام الرّسل والكتب المقدسة والنّصوص الدّينية كافّةً، وتحريم تدنيسها أو

الإساءة إليها ومنع كلّ صور ذلك؛ واحترام الأماكن والمقدسات الدّينية كافة، وتأمين حريّة وصول المؤمنين إلى مقدساتهم؛ واحترام الرموز الدينية للأديان كافّة، وتحريم الإساءة إليها ومنعها بكلّ صورها؛ واحترام حريّة التّعبير المسؤولة الّتي لا تمسُّ بمعتقداتِ الآخرين ومشاعرِهم؛ وذلك سعيا إلى تحقيق المزيد من التّآلف والوئام الّتي تدعو إليها المقاصدُ الدّينية والإنسانيّة الّتي جاءت بها الدّيانات الإلاهيّة.

إنّه مهمّة ينبغي أن نحملها، وأخصّ العرب المسيحيّين، وفق خطّة واعية لدور حضاري وديني، لأنّ الحملة ضدّ العروبة والإسلام تمسّنا أيضاً، نحن العرب المسيحيّين، في حضارتنا وتاريخنا الّذي ساهم آباؤنا مع إخوانهم أبناء الأمّة في تشييد صرحه وكان لهم فيه دور بارز متميّز. وهو دور للمسيحيّين على الأمّة اليوم أن تحافظ على إبرازه، وأن تمكّنهم من تأديته، لأنّه سلاح حيويّ في يدها أشدّ تأثيراً، وأقوى حُجّة على سماحة الإسلام وتعدديّة حضارته وتقبّله للأديان السماويّة المسيحيّة واليهوديّة وانفتاحه عليها.